إسعاف النشاشيبي

بمناسبة ذكرى وفاته

للاستاذ كامل السوافيري

يصادف ظهور هذا العدد من مجلة الرسالة موعد حلول الذكرى الثالثة لوفاة زعيم العربية وإمام المحققين المغفور له الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي إذ طواه الردى في منتصف ليل اليوم الثاني والعشرين من يناير سنة ١٩٤٨

ومن حق الفقيد على مجلته الأثيرة التي خصها بنقله ، أن تفسح صدرها لدمعة عليه في يوم ذكراه وهي المجلة التي استمدت وقارها من عميدها الكبير الذي كان ثالث ثلاثة استبقاهم الرفاء بجانب الفقيد في ساعاته الأخيرة ، والذي عده الفقيد ثالث الكتاب بعد الجاحظ وأبي حيان وقال عنه إنه أمير النثر والناثرين وإنه سيد البلغاء (١). وهيهات لعلي الماحز أن يتطاول فيحاول أن يوفي الفقيد حقه ، أو يحصر مآثره على لمة الصداد وهو الذي حمل لواء الدفاع عنها خمسة وستين عاماً يصول في كل ميدان ، ويجول في كل حلبة ثابتا له صارم ولا كبا به جواد. ولكنها عبرة أسكبها وزفرة أرجيها تقديراً لعلم من أعلام الأدب وكوكب مشرق في سمائه طالما أرسل ضياءه إلى دنيا العرب والمروءة

ومن حق الفقيد على الأدباء في مصر والعالم العربي أن يحتفلوا بذكراه وهو الذي دوى صوته مجلجلا في القدس ودمشق وبيروت والقاهرة وبغداد فهز القلوب بأسلوبه الرائع ، وبيانه الساحر . ولكننا في الشرق — والأسى يملأ الجوانح — نضن بالوفاء على الأحياء فكيف بمن ضمهم الثرى، ووارهم التراب

لقد كان الفقيد طراداً حاسما من الأدباء تعصب للفصحى ،

(١) من كلمة للجديلي بك عن الفضيلة الرسالة عدد ٧٦٢

الإسلام والمشاكل الاجتماعية

٢ — دراسة الظواهر الدينية كما تبدو في المجتمع . وهذا يتطلب تجرداً علميا ينفذ إلى الصميم . لا يأخذ بقشور هذه الظواهر وإنما ينفذ إلى اللباب الذي كثيراً ما تتراكم عليه ألوان من العرف والعادات والتقاليد التي ليست من أصوله ولا هي من جوهره . ولعل التحامل الذي يصدر عن بعض مفكري الغرب في دراستهم للدين الإسلامي يعزى إلى فقدان هذا التجرد والعجز في إزالة الركام عن لباب الظواهر الاجتماعية. وهذا أيضا خطأ يأخذ به بعض المحدثين من المسلمين أنفسهم إذا ما حاولوا معالجة السلوك الديني في المجتمع الذي يعيشون فيه

٣ — توزيع العمل في الدراسة العلمية . فالباحث في علاقة الدين بالمشاكل الاجتماعية لا بد وأن يكون ملما بكلا الموضوعين إلماما واسعا . فالاقتصادي الذي يكتب عن الاقتصاد في الاسلام لاينبغي أن يقتصر على ذخيرة من علم الاقتصاد وإنما يترتب عليه أن يلم إلماما دقيقاً بهذا التراث الضخم من الشريعة الاسلامية وهو تراث ينفق الناس السنوات في التعرف على بعض ألوانه وقل مثل ذلك عن رجال الدين الذين يعالجون المسائل الاقتصادية العميقة من وجهة النظر الدينية

ووجه القصور في بعض من كتب عن « الشيوعية في الاسلام » أو « الاشتراكية في الاسلام » أو « العدالة الاجتماعية في الاسلام » أنهم ادعوا ما ليس لهم به علم كاف . فالاشتراكية مثلا مزيج من فلسفة واقتصاد وسياسة ودراسة اجتماعية وهي أدق وأعقد من أن تؤخذ في سطحيتها وتقارن بالشريعة الاسلامية وفروع التخصص فيها عديدة متفرقة

فالكتابة عن العلاقة بين الدين والمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية عمل يجب — إذا توخى النفع الصادق — أن يشترك فيه جماعة من أهل الاختصاص في حلقة أو حلقات يقوم فيها كل في مجال اختصاصه بالدرس والبحث والتنقيب . أو أن يتفرغ لها الكاتب فترة معقولة من الزمن يستعين بالمراجع الوثيقة في المواضيع التي تمس لباب البحث مسا مباشراً أو غير مباشر. مستأنساً بآراء أهل العلم حين يستعصى عليه الفهم

أما اتباع الأسلوب الصحفي في الكتابة عن هذا الموضوع أو التصدي لمعالجته في أدب المقالة والإنشاء فلن يحقق نفعا صادقا

نيويورك « لبحث صلة » محمد علي

واعتز لغة الضاد وتصدى للداعين لنبذها والاستعاضة عنها بلغة الفرعاء ورماهم بشواظ من لسانه فأحرس ألسنتهم ، وله فى ذلك مواقف رائعة تختال لها لغة عدنان بشرا وطربا

تعصب إسعاف للغة العربية لأنه يراها أهم عنصر فى القومية، فمن تنكر للغته فقد تنكر لقوميته؛ ومن تنكر لقوميته فقد غدا حربا على أمته وبلاده. وفى هذا يقول (اللغة هى الأمة ، والأمة هى اللغة وضعف الأولى ضعف الثانية، وهلاك الثانية هلاك الأولى . واللغة ميراث أورثه لآباء الأبناء ، وأحرم الوراث صان ماورث، وأسفههم فى الدنيا مضيع ، وإنا أمم اللسان الضادى لعرب وإن انتمائى العربية وهى الإرث الذى ورثناه وإنا لحقيقون — والآباء هم الآباء واللغة هى اللغة — بأن نبقى عربيـة الجنس وعربية اللغة (١)) ولقد قضى العقيد القسم الأول من حياته مدرساً للغة العربية فى مدارس فلسطين قبل الانتداب البريطانى وبعده ثم ست به كفاءته فارتقى حتى وصل إلى درجة التفتيش العام للغة العربية فى القطر بأسره . فنهض بها نهضة ارتفعت بها إلى أسمى الدرجات رغم أن حكومة الانتداب البريطانى كانت تقاوم ازدهار اللغة العربية ، وتحول دون تبوئها المكانة اللائقة كلغة قومية فى قطر عربى . ومن مآثره الجليلة فى هذه الناحية كتاب أسماه البستان اختار فيه مقطوعات شعرية ، وكلمات نثرية يستظهرها الطلاب فى مدارس فلسطين الابتدائية والثانوية، وكان موفقاً كل التوفيق فى الاختيار إذ بث فى نفوس الناشئة حب الوطن ، والتطلع للمجد ، والتأهب للوثبة. وله غير بستانه الزاهر رسائل منها كلة فى اللغـة العربية وكلة فى رثاء أمير الشعراء شوقى بك، وثالثة فى الزعيم إبراهيم هنانو. وآخر مؤلف طبعه كتاب الاسلام الصحيح. ورغم أن إسعاف قد ارتقى إلى ذروة المجد، وتسنم الشهرة فى أفق اللغة والأدب ، فقد كان على جانب كبير من دماثة الخلق ، وحسن الطبع ، وعظم التواضع حتى ليشعر محدثه بأنهما فى مستوى واحد ، والفرق كبير والبعد شاسع . وهو محدث لبق ، والذين أتيح لهم أن يصغوا إليه فى الكونغرس حين يتوسط الحلقة . ويدير الدفة يشهدون ببراعـة فى الحديث وإجادة فى التعبير. ولقد وقف إسعاف حياته على خدمة العربية لغة القرآن ، وما رأيته إلا قارئا أو خطيباً أو كاتباً أو معلماً أو مصححاً يستتر بأسماء متعددة ويتخفى بأزياء متباينة لأنه لا يبغى مزيداً من شهرة أو ظهور

والمجلات الشهرة فى العالم العربى وفى مقدمتها الرسـالة فى مصر ومجلة المجمع العلمى فى دمشق زاخرة بأبحاث العقيد فى شتى النواحى العلمية والأدبية

ولقد كان إسعاف قوى الإيمان ، راسخ العقيدة . فاهماً الاسلام حق الفهم ، القرآن حداؤه وغناؤه ، والرسول الكريم قدوته وفى (خورنقه) (٣) نجد اسم محمد صلى الله عليـه وسلم مسطراً أمامه على الجـدران فى صور متعددة . يامحمد — أنا عبدك يارسول الله

وتهتز أعطافه عندما يرتل آى الذكر الحكيم ترتيل العربى الصميم الذى أحاط بأسرار اللغة العربية فهم الآيات الفهم الكامل وأدرك ما ترمى إليه من أهداف ومقاصـد ، وهو الذى يقول فى القرآن :

(يا أيها الكتاب المعجز، لقد هلك من يدرك فصاحتك ، ويكتنه بلاغتك ، ويقدرك حق قدرك . لقد هلك من كنت تتلو عليهم آياتك فيدهشون ويخرون سجداً وبكيا . وهل يعرف بلاغتك المعرفة البالغة إلا عربى فح صليب لم تشن ملكته العربية من العجمة شائنة ولم تؤذ أذنه كلمة قلقة) (٤)

وبعد فقد عرفت اسعاف عندما استظهرت أول مقطوعة من بستانه فى مدارس فلسطين؛ ثم امتد بى الزمن فالتقيت به وعرفته محدثا ومحاضراً وكاتباً وخطيباً مفوهاً يستحوذ على القلوب ويلعب بالعواطف ، وكان إعجابى به يتزايد وتقديرى له يعظم؛ ولكنى دهشت للجهد الجبار الذى بذله فى إخراج كتابه (الاسلام الصحيح) الذى تفضل باهدائه إلى منذ عشرة أعوام .

لقد أخرجت مطبعـة العرب فى القدس هذا الكتاب سنة ١٣٥٤ هـ وقد ذكر فيه المؤلف بعض المراجع ، وأخذت أنا أحصى ذلك البعض فإذا به لا يقل عن مائتى مرجع فى شتى العلوم والفنون من لغة وأدب وتاريخ وملل ونحل وفقه وشريعة وأصول ، ولما

(١) من كلة للعقيد فى اللغة العربية ألقاها سنة ١٩٢٧

٣ — اسم يطلق على قصره المنيف فى القدس

٤ — من كلمة للاستاذ الرشدان عن العقيد فى الرسالة عدد ٨٢٠